نقد التصور العقلاني للأسطورة
حسب غادامير
Gadamer's Critique of the Rational Conception of Myth

الباحث : عبد العزيز النقر
abdelaziz_ennakr@um5.ac.ma
الأستاذ : عزيز قميشو
aziz.qmichchou@gmail.com
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس بالرباط
المملكة المغربية

الملخص:

دأب العديد من مؤرخي الفلسفة على إقامة نوع من التعارض التام بين اللوغوس والميتوس. ويظهر أن هذا التعارض قد ازداد حدة في الأزمنة الحديثة بتأثير من تصورات الفكر الأنواري من جهة، وبإيعاز من التطور العلمي - التكنولوجي الذي شهدته الفترة المعاصرة من جهة أخرى. في إطار مراجعة هذا الموقف السلبي من الأسطورة، تأتي إحدى مساهمات الفيلسوف الألماني هانس غيورغ غادامير. ولا شك في أن مراجعة كهذه قد اقتضت، في نفس الآن، مراجعة مجموعة من التصورات التي تتداخل معها وتتقاطع داخلها. لقد أضفى غادامير على الفكر الأسطوري قيمة إيجابية باعتباره حاملا لنوع من المعرفة التي تتجاوز نطاق التفسير العلمي. ولإبراز قيمة ومكانة الأسطورة في الأزمنة القديمة والحديثة على حد سواء، استند غادامير إلى مجموعة من الشواهد التاريخية والتحليلات المفهومية والفلسفية الدقيقة. سنعمل في هذا المقال على إبراز خصوصية تصور غادامير بشأن العلاقة القائمة بين العقل والأسطورة، موضحين في نفس الوقت دلالة هذا التصور بالنسبة إلى الفكر الحداثي الذي يولي لـ"العقل" قيمة جوهرية.

الكلمات المفاتيح: الأسطورة، العقل، التأويلية، العلم، التجربة الفنية.

Abstract:

Many historians of philosophy have sought to establish a clear opposition between Logos and Mythos. This opposition appears to have intensified in modern times, influenced by the conceptions of Enlightenment thought on one hand and driven by the scientific and technological advancements of

the contemporary period on the other. Within the framework of reassessing this negative attitude toward the concept of myth, the German philosopher Hans-Georg Gadamer made a notable contribution. Undoubtedly, such a reassessment necessitates a concurrent reevaluation of a range of conceptions that intersect with and overlap this domain.

Gadamer attributed a positive value to mythological thought, recognizing it as a bearer of a type of knowledge that transcends the boundaries of scientific explanation. To emphasize the significance and value of myth in both ancient and modern times, Gadamer drew upon a collection of historical evidence, and precise conceptual and philosophical analyses. In this article, we will examine the distinctiveness of Gadamer's perspective on the relationship between reason and myth, while also highlighting the significance of this perspective to modernist thought, which places a foundational emphasis on "reason."

Keywords: Myth; Reason; Hermeneutics; Science; Aesthetic experience.

مقدمة:

لا يكاد يختلف الباحثون حول حقيقة أننا نعيش حاليا مرحلة سيادة العلم -ومنتجاته التقنية- بدرجة غير مسبوقة في تاريخ البشرية. وإلى جانب مظاهر هذه السيادة، فقد مُنح "الفكر العقلاني" سلطانا بالغ النفوذ على كثير من مناحي الحياة الإنسانية، وذلك لدرجة صار معها من الصعوبة بمكان الحديث في هذه الأزمنة عن أي شرعية ممكنة أو صلاحية محتملة يمكن أن يحوزها أي نمط معرفي آخر لا يُقرُّ له "العقل العلمي" بذلك ابتداء وانتهاء. بعبارة أخرى، لقد صارت "العقلية العلمية" هي الفيصل الوحيد الذي بموجبه يتم تصنيف ما هو حقيقٌ بصفة المعرفة أو خليقٌ بسمة "الحقيقة". لهذا، كان لزاما على كل نمط معرفي يتوخى مكانة معينة داخل قائمة المعارف المعترف بها ألا يتعدى الحدود التي تُقرها مبادئ العقل العلمي من جهة، وألا يُجاوز التخوم التي تحددها نتائجه (العقل) من جهة أخرى.

إن مواقف كهذه ليست وليدة الفترة المعاصرة تحديدا، بل يمكن أن نجد لها أصولا وتجليات حتى في الأزمنة السابقة، كما هو الحال مثلا في الثقافة اليونانية أو في الثقافة الأوربية الحديثة، سواء إبّان نشأة الفكر التنويري أو بعده. وفي هذا السياق، يمكن فهم عبارة ماكس فيبر الشهيرة التي تتحدث عن "نزع السحر عن العالم" le désenchantement du monde. يظهر أن هذه العبارة، إضافة إلى كثير من التصورات العلموية والوضعانية، تستند بشكل صريح أو ضمني إلى خطاطة schéma معينة لفلسفة التاريخ. تتجلى هذه الخطاطة، باختصار شديد، من خلال النظر إلى تاريخ البشرية باعتباره تاريخا يتم فيه -بالضرورة- الانتقال الكامل من "الميتوس إلى اللوغوس". كان من بين النتائج الحاسمة لتبني هذه الخطاطة من طرف عصر التنوير أن تم استبعاد الأسطورة إلى نطاق القصص الخرافية التي لا تمت للحقيقة أو للمعرفة بأي صلة تُذكر.

لقد كانت تصورات التنوير من بين العوامل الأساسية التي أدت إلى تهميش الأسطورة والنظر إليها باعتبارها النقيض المطلق للفكر العقلاني الذي يجب أن يسود كل مفاصل الحياة الإنسانية. إضافة إلى ذلك، فقد زادت بعض الأفكار الوضعانية من حدة الموقف السلبي تجاه الفكر الأسطوري، ويكفي هنا الإشارة إلى قانون الحالات الثلاث لدى "أوغست كونت" Auguste Comteالذي يعتبر المرحلة "الوضعية" مرحلة "علمية" تَجُبُّ بشكل نهائي كل ما سبقها ! لكن، يبدو أن هذا الموقف الصارم من الأسطورة، أو من أي شكل من أشكال المعارف

التي لا تماثل المعرفة العلمية من حيثُ منهجها أو نتائجها، سيشهد نوعا ما بعض المراجعات داخل الفكر الفلسفي المعاصر. وبالنظر إلى هذا السياق، يمكن اعتبار بعض الاجتهادات النظرية لرائد الفلسفة التأويلية، هانس غيورغ غادامير، مساهمة نوعية ومتفردة في هذا الموضوع.

ينطلق غادامير في مقاربته لهذه القضية من مسألة أساسية تتمثل في النظر إلى الفكر الحديث باعتباره ذا "أصل" مزدوج : يشكل التنوير الطرف الأول لهذا الأصل، بينما يتمثل الطرف الثاني في كل من "الفلسفة المثالية الألمانية" و"الشعر الرومانسي" وفي "اكتشاف العالم التاريخي داخل المدرسة الرومانسية" (Gadamer, 1993: 163). من المثير للانتباه في مسار هذين الطرفين أنهما ظلا حاضران دائما من دون أن يتم الإقرار التام لأحدِ الطرفينِ بشرعيةٍ أو قيمةٍ من لدن الطرف الآخر، حيث بقي كل واحد منهما يمثل "حركة مناقضة" لحركة الطرف الثاني إلى حدود فترتنا الراهنة. يرجع موقف التنوير السلبي من الأسطورة عموما إلى موقفه من "التقليد الديني المسيحي" الذي رأى فيه التنوير موقفا مخالفا لكل "تفسير عقلاني" يمكن أن يضفيه الإنسان على العالم. وبما أن التنوير كان يطمح إلى فهم العالم وتفسيره وفق نمط عقلاني متحرر من كل سلطة (إلا سطلة العقل طبعا !)، فقد كان من الطبيعي أن يرى في "الأسطورة" مجرد شكل من أشكال "الفكر الخرافي" الذي آن للإنسان أن يطرحه جانبا وبشكل نهائي. كتب غادامير بهذا الخصوص قائلا : "لقد تم إدراك الأسطورة في هذا السياق باعتبارها المفهوم المناقض للتفسير العقلاني للعالم. إن الصورة العلمية للعالم تفهم نفسها كانحلال لصورة العالم الأسطورية" (Gadamer, 1993: 163).

إذا أخذنا هذه المعطيات بعين الاعتبار، فسيظهر لنا أن الأمر لا يتعلق بمجرد تصور انقطع أثره بانقضاء زمنه التاريخي، بل إننا أمام تصور لا يزال ساري المفعول حتى خلال فترتنا المعاصرة. لا ريب في أن استمرار مفعوله هذا راجع، في المقام الأول، إلى الهيمنة التي يمارسها التصور العلمي - المنهجي على كثير من الميادين المعرفية الطامحة إلى مقاربة الظاهرة الإنسانية من خلال تصور منهجي ضيقٍ يرفض الاعتراف بأي شكل من أشكال الحقيقة أو المعرفة التي لا تقر بها "التجربة المنهجية" الدقيقة والمضبوطة. بالعودة إلى فكر التنوير، يمكن القول إنه لم يكن أول من وقف سلبا ضد الأسطورة، فحسب غادامير، مثلت المسيحية (مع إعلان العهد الجديد) أول نقد جذري للأسطورة ممهدة بذلك الطريق للموقف الراديكالي الذي سيتخذه التنوير من الأسطورة فيما بعد.

ولئن كانت المسيحية هي أول من وجه نقدا حادا للأسطورة، فإن رواد المدرسة الرومانسية كانوا من بين الأوائل الذين حاولوا إعادة الاعتبار للفكر الأسطوري من حيث حمولته المعرفية ودلالته الإيجابية بالنسبة للإنسان، خصوصا فيما يتعلق بالحكمة المتضمنة في الأساطير والحكايات.

من ناحية أخرى، ستشهد علاقة الثقافة المسيحية بالأسطورة خلال عصر الرومانسية نَفَسا جديدا بحيث ستخف نوعا ما حدة الموقف السلبي الذي اتخذته المسيحية من الأسطورة سابقا. يقول غادامير : "إن تاريخ إحياء الادعاء الديني بصحة الأسطورة معروف. وعلى غرار أسلاف فيكو وهيردر، حولت الرومانسية -على وجه الخصوص- نقدها لعقلانية التنوير [...] إلى اعتراف بالأهمية الدينية للأساطير. وفي الوقت نفسه، اكتسب اللمعان الأسطوري المتأصل في التاريخ المقدس للمسيحية بريقًا جديدًا" (Gadamer, 1993: 180). من جهة أخرى، وقفت الرومانسية موقفا معارضا لفكر التنوير نظرا لاقتناعها بحقيقة أن العقل المجرد قاصر عن إدراك الأبعاد الإنسانية التي تتجاوز حدوده الضيقة وقدرته المحدودة. وبدل ذلك، أعطت لمفهوم "الفرد" قيمة كبرى ومكانة جوهرية. لكن، ليس المقصود هنا تلك الفردانية المؤسَّسَة على فكر عقلاني مجرد يستمد مشروعيته من الكوجيطو الديكارتي، بل إنها فردانية تتخطى الإطار الذي يفرضه النظر العقلي أو الوصف المفهومي. كتب غادامير قائلا : "في الواقع، كان اكتشاف الفرد في ذلك الوقت هو الإنجاز الأعظم للثقافة الرومانسية. ففي هذه الفترة الرومانسية، ظهر الشعار الشهير [الذي يقول] إن الفرد 'غير قابل للوصف ineffabile، وبالتالي، لا يمكن إدراك فرادته على نحوٍ مفهومي" (Gadamer, 2001: 12).

كما سبق أن أشرنا، فقد أقام التنوير تقابلا حادا بين اللوغوس والميتوس معليا من قيمة المفهوم الأول على حساب المفهوم الثاني، إذ رأى أن مسار التطور الذي يجب أن يسير وفقه الفكر البشري يتجسد في خطاطة محددة : لزوم وضرورة الانتقال من اللوغوس إلى الميتوس. في مقابل هذا المسار، اتجهت المدرسة الرومانسية صوب الإعلاء من أهمية الميتوس وتبخيس قيمة اللوغوس. يرجع الموقف الإيجابي للرومانسية من الأسطورة إلى موقفها من التراث عموما، إذ على عكس التنوير الذي اعتبره عاملا من العوامل التي تعيق المرء عن الوصول إلى معرفة حقيقية، رأت فيه الرومانسية مصدرا للمعارف والقيم. لكن، رغم الدور المهم الذي عزته الرومانسية للفكر الأسطوري، إلا أن تصورها ذاك ظل -حسب غادامير- حبيسا للتصور التنويري

نفسه، حيث إنها باعترافها بوجود حد فاصل وتقابل تام بين اللوغوس والميتوس، فإنها بقيت تتحرك على نفس أرضية التنوير. أما اكتفاء الرومانسية فقط بـ"قلب قيمة" هذين الطرفين، فلم يكن كافيا لنفي حقيقة أنها أسهمت، ربما بدون وعي منها، في تأبيد ذلك التقابل الحاد بين العقل والأسطورة.

إن تصور كل من التنوير والمدرسة الرومانسية للخطاطة الخاصة بفلسفة التاريخ -أي الكيفية التي يجب أن تسير وفقها الحضارة الإنسانية- هو نفسه من حيث بنيته، ويبقى الاختلاف الوحيد بينهما هو في القيمة التي يعطيها كل واحد منهما إلى طرفي تلك العلاقة، فإذا كان التنوير يرى أن مسار التطور البشري يسير من الميتوس إلى اللوغوس، فإن الرومانسية تذهب -كردة فعل على تصور التنوير المتطرف هذا- إلى ضرورة قلب هذه العلاقة للعودة إلى "أزمنة غابرة" تكون أقرب ما يكون إلى "مجتمع وثيق الصلة بالطبيعة". يقف غادامير إزاء هذين التصورين موقفا سلبيا، إذ لا يرى في جذريتهما إلا تعبيرا عن سذاجة مخالفة لطبيعة الأمور، يقول في هذا الخصوص: "في الحقيقة، إن فرضية أسرار غامضة، أي مكان للوعي الجمعي الأسطوري سابق على كل فكر، هي تماما فرضية دوغمائية ومجردة مثلها مِثْل حالة الكمال الملائمة للتنوير Aufklärung التام أو لحالة المعرفة المطلقة" (Gadamer, 1996: 441). لا غرو في أن المخطط الذي تدعيه -أو تبتغيه- الرومانسية لحركة التاريخ أمر متعذر من حيث المبدأ، إذ لا يمكن للمرء أن ينكر المكتسبات الإيجابية التي حصلها الإنسان بفضل "العقل" خلال الأزمنة الحديثة والمعاصرة.

فضلا عن ذلك، يظل الطموح إلى "التنوير" من خلال تحكيم واستثمار "العقل" في مستويات معينة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أمرا مشروعا، بل ومطلوبا. لكن، لا يجيز هذا المطمح، بطبيعة الحال، إعطاء صلاحية تامة لتلك الخطاطة التي يزعمها التنوير، سواء من خلال الإقرار بأن البشرية قد حققت فعلا انتقالا نهائيا من الميتوس إلى اللوغوس، أو من خلال الدعوة إلى تحقيق انتقال كهذا. إن خطاطة كهذه لا يمكن أن تكون شاملة البتة، كما يبقى أمر تحققها التام والنهائي أمرا متعذرا. يرجع ذلك إلى عدة أسباب، من بينها أن هذا "العقل التنويري" لم يكن -ولن يكون- أبدا "سيد نفسه"، إذ لا وجود لعقل مطلق يكون في حِلٍّ من كل التأثيرات الواقعية، فالعقل لا يكون كذلك (أي عقلا) إلا إذا كان "تاريخيا" و"واقعيا".

بناء عليه، يتضح لنا أن دعوى الانتقال التام من مرحلة الميتوس إلى زمن اللوغوس لا تعدو كونها وهْما يستند إلى بعض "الأحكام المسبقة" لعصر التنوير. لهذا، فقد اعتبرها غادامير مجرد افتراضات "ساذجة" بحكم أنها تنظر إلى العقل الإنساني كما لو كان "العلة الكافية" la raison suffisante لكل ما عداه، أي لكل تلك المسائل والمستويات التي يدعي قدرته على قهرها أو التحكم فيها والسيطرة عليها. لكن في المقابل، يبدو أن هذا العقل عاجز حتى عن تأسيس "إمكانيته الخاصة" اعتمادا على نفسه فقط. بالتالي، يؤكد غادامير أن عقلا كهذا خليقٌ بأن يقال عنه أنه لا هو قادر على فهم نفسه حق المعرفة، ولا هو قادر على إدراك "الفعالية الأسطورية" التي تظل "تسنده" و"تغلفه" (Gadamer, 1995: 67).

رغم ذلك، فقد درجت مجمل القراءات المتأثرة بتصورات التنوير على تبخيس قيمة الأسطورة معتبرة إياها مجرد نمط تفكير ساذج وبدائي تجاوزه العقل المتنور، أي ذلك العقل الذي لا يستمد مشروعيته إلا من مبادئه الخاصة، ولا يعترف بصلاحية أي شيء آخر إلا إذا كان منسجما مع ما تقره تلك المبادئ أو موافقا لما تشهد له النتائج المستمدة من التجربة العلمية. غني عن البيان أن المضامين التي تقدمها الأساطير ستكون بالنسبة لهذا التصور مجرد أكاذيب ينسجها الكُهان أو خرافات ترويها العجائز للصبيان. في مقابل هذا الرأي المتصلب من الأسطورة، يتبنى غادامير رأيا أكثر مرونة، حيث يعتبر أن الأساطير غالبا ما تتضمن معارف وحكما يستعصي على "العقل العلمي"، أي العقل المجرد - الحسابي، أن يسبر غورها أو يعي قيمتها وأهميتها.

ترتكز الكيفية التي تتبناها الأسطورة في عرض مضامينها في الغالب على استعمال وسيلة تخيلية أو رمزية، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أن كل ما هو متضمن فيها هو مجرد خيال أو محض أوهام. إذ على العكس من ذلك تماما، فإن الغاية التي وُضعت لأجلها الأساطير ابتداء كانت، في الغالب الأعم، مرتبطة بالرغبة في إيصال فكرة ما أو معرفة معينة. إن سمة المعارف والحقائق المتضمنة في الأسطورة تتميز، في كثير من الأحيان، بعمق ونفاذ بصيرة قلما يخطئهما الناظر (النظر هنا بمعنى الفكر) المتمعن، فالحِكم والمعارف التي تحتويها الأساطير تمثل، عموما، حصيلة تراكم مجموعة من التجارب والخبرات -بآمالها وآلامها- التي كابدها شعب من الشعوب على امتداد فترات زمنية طويلة. إن الأمر الأكيد بخصوص طبيعة هذه المعارف، هو أنها تظل بمعزل عن

الخضوع لأي معيار علمي أو تقويم وضعاني (positiviste)، وذلك نظرا لأن النمط المعرفي الخاص بالأسطورة يتجاوز الشروط والمناهج التي يقرها العقل.

ما فتئ غادامير يؤكد في العديد من أعماله الفكرية على ضرورة إعادة الاعتبار إلى أنماط معرفية أخرى تتجاوز حدود الإطار المنهجي - العلمي الضيق. وقد وجد في الفلسفة والتجربة الفنية والتاريخ مجالات يمكن أن تسعف المرء في التعرف على مجموعة من الحقائق والمعارف التي لا يملك العقل العلمي عليها سلطانا. كما أكد أيضا على أن أهمية هذه الأنماط المعرفية الأخرى لا تقل قيمة عن نمط المعرفة العلمية، خصوصا من حيث قيمتها ودلالاتها الإيجابية بالنسبة لمجمل تجربة الإنسان في العالم. سنوضح فيما يلي وجها من أوجه هذه الدلالات الإيجابية من خلال الاستناد إلى موقف غادامير من التجربة الفنية. واختيارنا لهذه التجربة كمثال نابع من ارتباطها، في عدة جوانب، بموضوع الأسطورة.

وجّه غادامير في أعمال عديدة نقدا لاذعا لـ"الوعي الإستطيقي" الذي ينفي عن الفن أي علاقة ممكنة بالواقع أو بالحقيقة، حيث يعتبر هذا الوعيُ الفنَّ مجالا أثيرا للخبرة الذاتية. وعلى النقيض من هذا التصور الموروث عن الفلسفة الكانطية، يؤكد غادامير أن المجال الفني مرتبط أشد الارتباط بالواقع المعيش للإنسان، حيث يمكن للعمل الفني -في كثير من الأحيان- أن يعبر عن بعض المواضيع الإنسانية بكيفيات تفوق بدرجات الكيفية التي يمكن أن تعبر بها المعرفة العلمية عن تلك المواضيع. هكذا، يؤكد غادامير، على سبيل المثال، أن الشعر يحوز قوة تعبيرية يصعب استنفاد إمكاناتها الغنية بشكل تام، كما يستحيل حصر ممكناته التعبيرية في بعض القضايا المنطقية إرضاء للطموح العقلي. يقول غادامير في سياق حديثه عن علاقة هوميروس بالميتولوجيا (الأساطير) الإغريقية : "لكن، ما عساه أن يكون الشعر غير ذاك التمثيل لعالم تتجلى فيه حقيقة هي في حدا ذاتها غير دنيوية. وحتى عندما لم تعد هناك أي تقاليد دينية ثابتة، فإن التجربة الشعرية للعالم تبدو أسطورية. وهذا يعني أن الواقع المهيمن حقا يتم تمثيله في حيويته وفاعليته." (Gadamer, 1993: 168).

لا يصدق هذا القول الغادامري فقط على الشعر الهوميري (نسبة إلى هوميرُس) في ارتباطه بالأساطير اليونانية، بل إنه يمكن أن ينطبق على كل تجربة فنية بما في ذلك التجربة الشعرية. صحيح أن هناك كيفيات فنية مختلفة من حيث قوة وطريقة تعبيرها عن الحقيقة التي تتوخى

إيصالها إلى المتلقي، إلا أن الأمر المشترك بين مجمل هذه الأنماط الفنية، هو قدرتها الفعالة على التعبير عن العالم وعن تجربة الإنسان داخل هذا العالم بكيفيات لا تستطيع التجربة العلمية ولا العبارة المنطقية (اللوغوس) أن تضاهيها. يرجع ذلك إلى أن تلك الكيفيات تمنح للتجربة الفنية إمكانيات لأن تظهر كنهها العميق وتبرز ثراءها الدلالي وغناها التأويلي.

من خلال ما تقدم، يظهر أن الرغبة في الاقتراب الفعلي من واقع التجربة الإنسانية يستلزم الإقرار بأن نمط المعرفة العلمية ليس بالضرورة نمطا شاملا أو أنه هو النمط الوحيد المتاح لولوج مجمل المستويات التي تهم الإنسان كليا أو جزئيا. لهذا الاعتبار، يؤكد غادامير أنه "ينبغي على المرء، بطبيعة الحال، الاعتراف بحقيقةِ أنماطِ المعرفةِ التي تقع خارج العلم، وذلك حتى يتسنى له أن يدرك في الأسطورة حقيقة خاصة. ولا ينبغي حصر هذه الأنماط في [نطاق] الصور الخيالية غير الضرورية. إن التجربة الفنية للعالم لها طابع ضروري، وهذه الخاصية الضرورية للحقيقة الفنية تشبه التجربة الأسطورية، وهذا ما يظهر في وحدتهما البنيوية المشتركة" (Gadamer, 1993: 168).

يطلعنا غادامير، في معرض تحليله المفهومي لمصطلح الأسطورة، على أن المعنى اللغوي لكلمة أسطورة كان يحيل في الاستعمال الهوميري على دلالات من قبيل "الخطاب" و"الإعلان" و"الإخبار عن شيء ما". ولم يكن يتضمن هذا الاستخدام اللغوي، في البداية، أي إحالة إلى أن لفظ الميتوس يدل على خطاب غير موثوق أو أنه يمثل مجرد اختلاق محض (Gadamer, 1993: 171).

لم يتم التقليل من القيمة الفعلية للأسطورة إلا بعد قرون من هوميروس، خصوصا مع "التنوير اليوناني" حيث ستُهمَل المفردات الخاصة بالميتوس والملاحم لصالح رغبة ملحة في "اللوغوس". لكن، رغم ما يظهر من سلبية في هذا الأمر، إلا أنه ينطوي على شيء إيجابي، إذ بمجرد الإقرار بهذا التمييز بين اللوغوس والميتوس، فإننا نعترف ضمنيا بأن الأسطورة تمثل "خطابا خاصا" يختلف عن خطاب اللوغوس. ولئن كان هذا الأخير يستند إلى أساليب التفسير والبرهنة التي تثبت كفاءتها في مجالَيْ المنطق والرياضيات، فإن الأسطورة تستأثر بتلك الأشياء التي لا يمكن الولوج إلى عالمها إلا من خلال "الحكي" (Gadamer, 1993: 171). سيعرف مفهوم الأسطورة بعد ذلك تحولات مهمة، لكن النتيجة النهائية كانت بطبيعة الحال هي التقابل التام مع اللوغوس. هكذا، وطالما أن الحقيقة المتضمنة فيها لا يتم بلوغها بواسطة اللوغوس، فإنها ستصير، خلال

زمن أفلاطون وأرسطو على سبيل المثال، أقرب إلى الحكايات والخرافات. لكن رغم ذلك، لم يخل التصور الأرسطي من كل فائدة بالنسبة للأسطورة، إذ رغم وضعه لها في "تقابل طبيعي" مع "ما هو حقيقي"، إلا أنه يقر في بعض المواضع أن القصص والحكايات المبتكرة تملك "حقيقة" أكثر مما قد تحوزه تلك الأخبار التي يرويها المؤرخون عن أحداث واقعية (Gadamer, 1993: 170-173).

لنترك الآن تاريخ المصطلح جانبا، ولنعد إلى الخصائص المميزة للأسطورة والتجربة الشعرية. ينبغي التأكيد، بخصوص هذه النقطة، على أن الخصائص التي أشرنا إليها سالفا لا تصدق فقط على الشعر الأسطوري في الأزمنة القديمة، بل إن مظاهر القوة التعبيرية التي تشترك فيها الأسطورة والتجربة الشعرية يمكن أن تلاحظ حتى لدى بعض الشعراء الكبار في الفترة المعاصرة. يقدم لنا غادامير في هذا الصدد مثالا بشاعره الأثير ريلكه Rilke الذي يتوسل في بعض قصائده بالصورة الاستعارية للملاك. يذهب غادامير في تأويله لشخصية الملاك إلى أنها تعبر لدى ريلكه عن "رؤية اللامرئي"، إذ رغم أن هذا الأخير يستعصي على الرؤية بالعين المجردة، إلا أنه يتموقع -حسب تأويل غادامير لهذا المثال- في "قلب المرء" دون أي شك.

لا يهم في هذا الشأن أن يكون ريلكه مؤمنا حقا بوجود ملاك أم لا، لكن الأهم هو أن لا أحد يستطيع فعلا أن ينكر أو يتجاهل الحقيقة الفعلية لما تعبر عنه شخصية الملاك هنا، أي ذلك الإحساس الحقيقي الذي يجد لنفسه موطئ قدم في قلب المرء بصفة عامة، وفي فؤاد ريلكه بصفة خاصة. إن هذا المثال يصلح لفهم الكيفية التي يفهم بها غادامير أهمية الأساطير. ففي هذه الحالة، لا ينبغي الحكم على الأساطير -أو الصور الشعرية- انطلاقا من القالب الذي تصاغ فيه مضامينها بقدر ما ينبغي أن نولي عنايتنا للحقيقة والمعرفة التي تسعى هذه الأسطورة أو تلك لتقديمها، وذلك بغض النظر عن الشخصيات المتخيلة أو الحبكة السردية التي تتوسل بها.

بناء على ذلك، لا يمكن للصور الشعرية ولا للأساطير أن تمثل مجرد استيهامات اعتباطية أو تخييلات عرضية أو حتى أحلام تعسفية لا تخضع لأي تماسك داخلي ولا يربطها بعالم الناس أي رابط. يرى غادامير، خلافا لذلك، أن الصور الشعرية الأصيلة والأساطير القديمة تمثل نوعا من "الإجابات البارعة" التي تُعين الإنسان على "فهم ذاتي" أكثر عمقا. في نفس الآن، لا يمكن للمرء أن ينفي ما تتضمنه تجربة كهذه من بعض الجوانب العقلية. وبذلك، فالإنسان يستطيع بموجبها

أن يحوز إدراكا أفضل وفهما أكثر لوجوده الخاص في هذا العالم، وذلك بحكم ما تعرضه هذه الصور الشعرية أوما تقدمه تلك الحكايات الأسطورية من حقائق تتميز بفرادتها أو معارف تتسم بثرائها وحكم تطفح بعمقها.

علاوة على ذلك، يمكن القول، حسب غادامير، إن انفتاح العقل على هذه الأبعاد -التي طالما سعى إلى إقصائها وتبخيس قيمتها- قد يجعل العقلَ "أكثر عقلانية"، وكأنّ هذا العقل يغدو أكثر عقلانية فقط عندما يستطيع فهم ذاته في مستويات تتجاوزه هو نفسه (Gadamer, 1993: 169). كما أشرنا آنفا، لا تكاد تخلو العبارات الشعرية -وهو أمر يصدق بكل تأكيد على الأساطير أيضا- من مضامين وأفكار تعبر عن مجموعة من الحقائق التي تختلف من حيث بنيتها عن "الحقائق العلمية" المستندة إلى وثاقة المنهج وقوة التجربة. لهذا السبب، ينبغي على العقل ألا يهمل أو يقصي هذه الحقائق والمعارف التي تعبر عنها الأسطورة أو الشعر (أو الفن عموما). وذلك نظرا لأن الأسطورة تمثل كيفية من الكيفيات المتاحة للإنسان قصد التعبير عن تجاربه في هذا العالم والإفصاح عن ممكنات وجوده الخاص. يقول غادامير : "إن معنى الأساطير ومعنى الحكايات هو الأكثر عمقا. [...] وفي الحقيقة، حيثما تتحدث الأساطير، فإنها تمثل حقا شيئا يتجاوزنا das Überlegene، إنها ما يعرف كل شيء، إنها ببساطة ما يتحدث إلينا في العتمة ويعلمنا." (Gadamer, 1995: 66). هكذا، يمكن القول إن الأساطير والأعمال الفنية تشكل وسائل يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن كل تلك الأمور "الحقيقية" والمسائل "الواقعية" التي يختبرها في وجوده وعالمه، لكنه لا يجد لها طريقا للتجلي خارجا إلا من خلال تلك الوسائل.

يبدو أن فعالية أو قيمة المضامين التي تعبر عنها تلك الوسائل لا تتناقص بتقادم الزمن، بل لعل هذا التقادم نفسه هو ما يضفي على تلك الحقائق والمعارف مزيدا من الاغتناء والتنوع. يعود هذا الأمر إلى أن تلك الأنماط المعرفية تتميز بكونها تتيح للمؤول دائما إمكانات تأويلية جمة، أي إنها تمنح فعل القراءة إمكانية التنوع مما يعطي عملية الفهم والتأويل فرصة أكبر للاغتناء نظرا لما يختزنه النص من ممكنات دلالية من جهة، ونظرا للتأثير الذي يحدثه "فعل التاريخ" في كل نص أو أثر فني من جهة أخرى. وربما لهذا السبب، يمكن القول إن "القارئ (أو المؤول بصفة عامة) يمكنه، بل أكثر من ذلك، ينبغي عليه أن يعترف لنفسه أن الأجيال القادمة ستفهم بشكل مختلف ما قرأه هو في هذا النص"(Gadamer, 1966: 542). بتعبير آخر، كلما مر الزمن إلا وتنوعت

القراءات واختلفت التأويلات، ولا ريب في أن هذا الأمر بالغ الأهمية بالنسبة لعملية الفهم والتأويل، حيث إنه يهبها دائما سمة التجدد وخاصية الثراء، كما يدفع عنها صفة الجمود وعيب الانغلاق.

من اللافت للنظر أن تجد هذه القوة التأويلية لنفسها مثالا جيدا في عملية فهم وتأويل الأساطير، حيث إنه "بحكم قوة التحول التي تملكها الأسطورة، أي انفتاحها دائما على تأويلات جديدة من طرف الشعراء، فهي تجبرنا -هناك حيث تدخل في اللعبة الشعرية- في نهاية المطاف على الاعتراف بأنه من الخطأ أن نسائل أنفسنا حول مدى "اعتقادنا" بأسطورة من الأساطير القديمة أو ما إذا كانت هذه الأسطورة تشكل سابقا موضوعا للاعتقاد." (Gadamer, 1995: 138). إن هذا الغنى الدلالي والتنوع التأويلي يمثلان تحديا للمعرفة العلمية المنهجية، فهذه الأخيرة تعجز عن الإدراك الفعلي لقيمة وأهمية هذه الخصائص التي تطبع أنماطا معرفية من قبيل الشعر والأسطورة والمسرح والفلسفة والتاريخ ... ولهذا الاعتبار بالذات، فإنه ينبغي على النزعة العلمية، حسب غادامير، أن تكف عن ادعاء صلاحيتها المطلقة على كل مناحي الحياة الإنسانية وجميع تجلياتها.

نأتي الآن إلى سؤال لا يخلو في نظرنا من أهمية، وهو : هل يمكن أن يعبر نقد غادامير للفكر العلمي عن أي مظهر من مظاهر اللاعقلانية المعادية لكل فكر عقلاني أو علمي؟ الجواب بوضوح لا لبس فيه هو : لا. لم يكن غادامير يهدف، سواء في كتابه الأساسي "الحقيقة والمنهج" أو في معظم الأعمال اللاحقة، إلى تبني أي تصور يدعو إلى نبذ الفكر العلمي أو التخلي النهائي عن التصور المنهجي، فهذا أمر لا يمكن أن يزعمه شخص عاقل يعيش في ظل المكتسبات الكبيرة التي وفرها العلم للبشرية إبان الفترة المعاصرة. لقد كانت غايته تحديدا هي التأكيد على أن المعرفة العلمية، وكل ما يدور في فلكها من تصورات منهجية وعلموية، تحوز صلاحية محدودة لا ينبغي لها أن تتجاوزها طمعا في مقاربة مجالات وقضايا تخرج عن نطاق تلك الصلاحية. هكذا، كتب غادامير بصدد حدود العلم قائلا : "[...] أعتقد أن شمولية (كونية) العلوم، فضلا عن نموذج التحقق الذي يسودها، هي أكثر محدودية [...]" (Gadamer, 1982: 47). بناء عليه، لا يجب أن تُحمل اجتهاداته النظرية الرامية إلى إعادة الاعتبار للأسطورة على أنها دعوة للعودة إلى "نمط فكري خرافي" ينكر أهمية التفسيرات العقلانية أو العلمية. إن المهم عند غادامير، في المقام الأول، هو

النظر إلى الأسطورة باعتبارها حاملا من حوامل المعرفة والحقيقة بحيث يمكن لهذا "الوعاء" المعرفي أن يحتوي أنماطا من الحقيقة لا يستطيع إدراك كنهها لا اللوغوس -حسب التصور اليوناني- ولا المنهج العلمي المعاصر. يقول غادامير في هذا الشأن : "بطبيعة الحال، إن الحقيقي [في الأسطورة] ليس هو القصة المروية بحد ذاتها -والتي يمكن أن تُروى بطرق مختلفة- بل ما يظهر فيها؛ إن الحقيقي ليس ببساطة هو ما تتم الإحالة عليه -والذي سيكون دائما خاضعا لعملية التحقق- بل إنه ما يحضر في تلك القصة" (Gadamer, 1993: 162). بمعنى أننا لا ينبغي أن نتجه في معالجتنا لطبيعة الأسطورة صوب البحث عما تحيل عليه من أشياء واقعية وملموسة بحيث يكون في مقدورنا إخضاعها لإمكانيات التحقق العلمي، كلا، إن المهم هنا -من منظور غادامير- هو المضامين التي تقدمها الأسطورة، أي تلك الأفكار والحقائق التي لا ينبغي أن تكون بالضرورة مجرد "وقائع" مشخصة على شكل ظواهر طبيعية أو واقعية. إن خصائص ومميزات الظاهرة الإنسانية تتجاوز حدود البعد المادي الملموس إلى أبعاد أكثر غنى وتنوعا، وهذه الأبعاد هي ما تسعى الأسطورة إلى نقلها إلينا، أو بالأحرى نقلنا نحن إلى فضائها.

خاتمة:

من خلال ما تقدم، يظهر أن انفتاح المرء على أنماط معرفية مختلفة لا يمكن إلا أن يعينه على فهم أكبر لطبيعته كإنسان من جهة، وعلى إدراك أفضل لوجوده في هذا العالم المعقد من جهة أخرى. وربما بهذه الطريقة، قد تجد الأسطورة -كشكل معين من أشكال المعرفة- لنفسها مكانة ما داخل عصر العلم (العقل).

المراجع:

- Gadamer, H. G., (1982). *L'art de comprendre I: Herméneutique et tradition philosophique*, (tr, Mariana Simon), Paris: Aubier Montaigne.
- Gadamer, H. G., (1993). *Gesammelte Werke: Band 8: Ästhetik und Poetik I: Kunst als Aussage*, Tübingen: JCB Mohr (Paul Siebeck).
- Gadamer, H. G., (1996). *La philosophie herméneutique*, (tr, Jean Grondin), Paris, Press universitaires de France.
- Gadamer, H. G., (1995). *Langage et vérité*, (tr, Jean-Claude Gens), Paris, Éditions Gallimard.
- Gadamer, H. G., (2001). *The beginning of philosophy*, New York, (tr, Rod Coltman), New York, Continuum.
- Gadamer, H. G., (1966). *Vérité et méthode : les grandes lignes d'une herméneutique philosophique*, (tr, Pierre Fruchon, Jean Grondin et Gilbert Merlo), Paris, Edition du Seuil.